

الفصل السادس

سببَات التذمر

في الفصول الخمسة الأولى من هذا الكتاب، تأملنا ملياً في موضوع السعادة المسيحية من زوايا مختلفة، حتى نستطيع أن نعرف ماهيتها وسبب أهميتها. وفي النصف الثاني من هذا الكتاب سوف نتعلم كيفية ممارسة الحياة المسيحية السعيدة. إن المرارة والتذمر، التي ترى الجانب الأسوأ في كل شيء، إنما هي ضد السعادة. وسندرس في هذا الفصل مساوئ التذمر، وسنكتشف أنه خطية إضافة إلى أنه ضار، وفي الفصل السابع سندرس بعض المواقف التي فيها يكون التذمر خطيراً، وفي الفصل الثامن سنرى بعض الأعذار أو المبررات التي نتخذها مبرراً للتذمر. حينئذ سنأهل لأن نعرف كيف نجد السعادة، وكيف تثبت سعادتنا.

1- التذمر أمر سييء، لأنه بمجرد أن يبدأ فإنه يتنامى إلى ما هو أسوأ. إن روح التذمر تشبه جرحاً رديئاً امتلاً بالصدید، فالجزء المصاب لا يمكن علاجه، بل يجب التخلص منه حتى لا ينتشر الداء في كل الجسد. كذلك الميل للتذمر، إذا لم يُكبح، فإنه ينتشر في كل حياتنا ويفسد كل شيء.

2- تكمن خطورة التذمر في أنه خطية؛ ففي رسالة يهوذا: 14 - 16، يُوضَع المتذمرون على رأس قائمة الأشرار الذين سيدينهم الله. التذمر خطية والله سيدين المتذمرين، أليس هذا أمراً خطيراً؟

3- إن التدمير خطية؛ لأنه يتضمن تمرّدًا على الله. عندما كان الإسرائيليون في الصحراء، تدمروا كثيرًا. فمع أن الله أنقذهم من العبودية في مصر، لكنهم لم يكونوا ممنونين سعداء، واستمروا هكذا لفترة طويلة. وفي كل مرة تدمروا، كان الله يعتبر هذا التدمير مُوجَّهًا ضده هو نفسه (عد14: 26 - 29). وفي الأصحاح السادس عشر من سفر العدد، تدمر الشعب على موسى وهرون، لكن الله اعتبر ذلك تدمرًا عليه هو، وعاقب المتمردين عقابًا شديدًا. فالتدمير إذاً خطير، ويجب علاجه قبل أن ينتشر روح التدمير إلى الآخرين.

4- لكن التدمير خطير بصفة خاصة عندما يصدر من شعب الله؛ لأن ذلك يناقض كل ما حدث عندما غير الله حياتهم. لقد جعلهم الله يدركون خطيتهم، ويعترفون بجرمهم، فهل يمكن أن الأشياء الأقل أهمية تفقد سعادتهم؟ لقد بيّن لهم محبة المسيح العجيبة، واستعداده لأن يترك أباه وأمجاد السماء بكل سرور، كما أراهم احتمالاً لقبول محدودية الجسد البشري واتضاعه وخضوعه، وحياته البشرية الكاملة، وموته بلا خطية. فهل يُمكنهم حقًا أن ينسوا كل هذه، ويشتكوا من أن الله لم يحسن إليهم؟ لقد حرّروهم من الرغبة في السعادة بالحصول على الأشياء المادية، فهل سيتدمرون إذا لم يحصلوا عليها؟ إن المسيح الآن هو سيدهم وملكهم، فهل هم في طريقهم إلى رفض قيادته بالتدمير عليه؟ لقد أتى الله بهم ليخضعوا لإرادته، فإذا تدمروا فإنما يشير ذلك إلى أنهم لم يخضعوا له خضوعًا حقيقيًا، بل ربما يدل هذا على أنهم ليسوا مؤمنين على الإطلاق. إذا تذكّر المؤمنون ما فعله الله من أجلهم، سواء محبته لهم، أو غفرانه لخطاياهم، وهبة الحياة الجديدة، وتذكّروا أنه جدّهم بصفة خاصة؛ حتى يمكنهم أن يعيشوا في ضوء كل هذه البركات إلى يوم رحيلهم من العالم؛ فإنهم لن يتدمروا، بل سيشتاقون إلى الخضوع ليسوع المسيح كربٍّ وملكٍ ومخلصٍ لهم.

5- كما أن التدمير يشكل موقفًا لا يرقى إلى المستوى الذي وضعه الله للمؤمنين. إن الله أبو المؤمنين، فتدمرهم يعني أنهم لا يتقون في رغبته في العناية بهم، أو أنه غير قادر على ذلك. كما أن المسيح عريسهم، لذلك فتدمرهم يعني ضمنا أنهم يشكّون في

محبتة. والروح القدس هو معينهم، وتذمرهم يعني أنهم لا يؤمنون بقدرته أو برغبته في معونتهم.

دعنا نتأمل بمزيد من التفاصيل عن المستويات التي وضع الله المؤمنين فيها. لقد رفعهم إلى مكانة كريمة جدا وجعلهم سادة السماء والأرض، وقرَّبهم إلى نفسه أكثر من الملائكة، وجعلهم متَّحدين مع المسيح. لقد أصبح المؤمنون في مقام متميز جدا، وكل هذا لكي تُظهر حياتهم قوة الله، فمن حق الله إذن ألا يتوقع تدمرا من أولئك الذين أكرمهم هذا الإكرام العظيم.

إن الله ليس مخلصهم فحسب، بل هو أيضا أبوهم، والآباء يحبُّون أن يروا نقاط القوة فيهم وهي تظهر في أولادهم؛ كذلك يحب الله أن يرى روحه القدس فعلا في أولاده، ويريد بصفة خاصة أن يراهم مشابهين ابنه يسوع المسيح، الذي تألم الآما شديدة ولم يتدمر قط، بل صلَّى قائلا: "ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت". فمن حق الله أن يتوقع عدم تدمر أولاده.

إذا ادَّعى المؤمنون أن الله بالنسبة لهم يعني أكثر بكثير من كل ما في هذا العالم، فعليهم أن يبرهنوا على ذلك بأسلوب حياتهم. خير لك ألا تدَّعي أنك مؤمن من أن تدَّعي ذلك ثم تسلك سلوكا مناقضا لادِّعائك. من حق الله أن يتوقع من الذين يدَّعون أنهم مؤمنون، أن يحافظوا على المستويات المسيحية التي رفعهم إليها.

لقد أعطى الله المؤمنين إيمانا، به يتأكدون أن من حقهم أن ينالوا كل ما وعد به الله. يقول الكتاب المقدس: "إن المؤمنين يجب أن يحيوا بالإيمان"، وليس معنى هذا توقُّع حياة بدون مصاعب، وإلا فلا تكون هناك حاجة إلى الإيمان! لكن معنى الحياة بالإيمان هو أن يقبل المؤمنون إرادة الله بفرح، لأنهم واثقون أنه قد وعدهم بكل ما هو لخيرهم. والله الحق أن يتوقع عدم تدمر أولئك الذين تعلَّموا أن يثقوا في مواعيده.

وبكلمات آخر يتوقع الله أن يكون المؤمنون صابرين في أوقات التجارب، فرحين في أوقات الضيق. لقد وصل الكثيرون بنعمته إلى هذا المستوى العالي، ويمكننا أن نقرأ عن بعضهم في عب11. أناس عاديون اتكوا على الله ليسندهم، عندما كانت تشتد بهم المصاعب. وإن الله يتوقع ذلك، وقد قام به آخرون، لذلك نحن قادرون.

6- إن التذمر يجعل صلواتنا بلا معنى، فلا يمكننا القول: "لتكن مشيئتك" ونتوقع أن تتم مشيئتنا نحن! ولا يمكن القول: "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم"، ثم نتوقع غداً يتميز بالتعرف. إن الصلاة ذاتها تتضمن أننا نعترف بأن كل ما عندنا هو من الله، فإذا بدأنا نتذمر على ما يعطيه لنا الله، فبالتالي نكون قد توقفنا عن الصلاة دون أن ندري.

7- إن التذمر يجلب التعاسة، إنه مضيعة للوقت؛ إذ يشغل كل تفكيرنا، حتى نتوقف عن التفكير في الله وفي كلمته. إنه يجعلنا غير نافعين لخدمة الله. إن الشخص السعيد، يمكنه أن يريح الآخرين، في وقت حاجتهم، أما المتذمر، فليس لديه ما يعطيه. والتذمر هو الخطوة الأولى في الإبتعاد عن الله، وما فعله يونان كان محاولة لإحباط مشيئة الله، بدلاً من الخضوع لها. وأسوأ الكل هو أن التذمر يجعلنا ناكرين الفضل. والكتاب المقدس يعتبر إنكار الفضل خطية. والمؤمنون المتذمرون غير شاكرين الله على عطاياه الكثيرة التي عندهم، ويدعون أنهم يطلبون عطايا أعظم لكي يمجدوا الله أكثر، لكنهم هم في الواقع غير شاكرين على ما عندهم. والمؤمنون يمكن أن ينكروا فضل الله عليهم، سواء على هباته الروحية أو بركاته الزمنية. لكن الله ينتظر أن يكون المؤمنون شاكرين وأن يحمده على كل ما أعطاهم. قال لوثر: "إن أسلوب روح الله هو أن يقل تفكيرنا في الأمور الضارة، وأن نفكر أكثر في الأمور الصالحة، فإذا سمح الله لنا بصليب؛ فذلك ليس شيئاً، وعندما يحسن الله إلينا فهذا عظيم". فإذا عصفت تجربة على المؤمنين، فعليهم أن يشكروا الله أنها ليست عنيفة كما كان يمكن أن تكون. والروح القدس يُعَلِّم المؤمنين أن يُعَظِّمُوا من شأن البركات التي يتمتعون بها، وأن يقللوا من شأن مشاكلهم، أما الشيطان فأسلوبه عكس ذلك. تأمل الإسرائيليين في الصحراء عندما قالوا لموسى: "أقليل أنك أصعدتنا من أرض

تفيض لبناً وعسلاً لتميتنا في البرية، حتى تتراًس علينا ترؤساً؟" (عد16: 13). لقد ملأ روح التذمر قلوبهم إلى الدرجة التي جعلتهم يشوهون الحقيقة؛ فمصر أرض العبودية والسخرة والضرب وذبح أطفالهم، لم تكن أرضاً "تفيض لبناً وعسلاً". لقد تعرضت قيادة موسى لسحب الثقة، كما تم تشويه حقيقة دوافعه. والمؤمنون قد يفعلون هكذا عندما تأتي المشاكل، فيجربون بأن يظنوا أنهم كانوا أسعد حالاً قبل الإيمان، وهذا الظن في حد ذاته يجعلهم يشعرون بالتعاسة.

8- إن التذمر ليس خطية وحسب بل هو حماقة؛ حيث أن كل ما نجنيه منه هو التعاسة، فما فائدة التذمر على شيء لا نملكه؟ هل يُسهّل هذا علينا أن نتمتع بما عندنا؟ هل يُشبع الطفل جوعه إذا رفض الخبز لأنه لا يوجد كعك؟ لا فائدة إذن من التذمر. يقول الرب يسوع: "من منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة؟" (مت6: 27). والإجابة الوحيدة هي: "لا أحد!" قد يشغل الناس أنفسهم بالهموم إلى حد الموت، لكن التذمر لا يفيدهم شيئاً. وقد يمنع الله عنهم بركة معينة حتى يصبحوا في حالة ذهنية مناسبة لقبول البركة؛ لأنه لو منح الله البركة للمؤمنين وهم في حال التذمر، فقد يجد المؤمنون أرواحهم في حالة من المرارة لا تمكّنهم من تقدير إحسان الله لهم. فالحقيقة هي أن التذمر حماقة، لأنه يحول الأمور إلى ما هو أسوأ، فالمؤمنون المتذمرون هم مؤمنون متكبرون يرفضون الخضوع لإرادة الله لهم. إنهم يشبهون البحارة الذين يتذمرون لهبوب العاصفة، عوضاً عن تجهيز سفينتهم لمواجهةها. أما البحارة الأذكياء فيذعنون للعاصفة وينزلون القلاع.

والأمران الأخيران اللذان يمكن أن نذكرهما عن التذمر، هما أمران خطيران جداً؛ فالتذمر يثير غضب الله، فقد غضب الله عندما تدمر الإسرائيليون، وهو يغضب عندما يتذمر المؤمنون. لقد عوقب الإسرائيليون لأنهم تدمروا، والمؤمنون أيضاً يجب أن يحذروا، حتى لا يضيفوا إلى متاعبهم ما يعرضهم لعقاب الله. إن روح الإستياء والتذمر هي روح الشيطان؛ فالشيطان كان أول من تمرد، وأول من تدمر، وأول من

لعنه الله. إن كل تمرد مستوجب اللعنة، وعلى المؤمنين أن يتحذروا جدا مما يقوله الكتاب المقدس عن التدمير.

أضف إلى ذلك أن الله قد يحرم أولئك الذين يتدمرون عليه من حمايته وعنايته. إن الموظف الساخط، معرض للإستغناء عنه، ليجت عن وظيفة أخرى، وقد يترك الله شعبه ليجتوا عن سيد آخر، إذا هم تدمروا على الطريقة التي يعاملهم بها. وقد يكون هذا، لأنه يريد أن يؤدبهم ليجعلهم يثقون فيه، أو لأنهم ليسوا مؤمنين حقيقيين على الإطلاق.

التدمير ضار لأنه الخطوة الأولى في طريق الإنزلاق والسقوط. إن أولئك الإسرائيليين الذين تدمروا في البرية، لم يروا أرض الموعد!!!